

العقل المحصّن

مقاربة فلسفية لثالث
التعليم والمواطنة
والأمن العربيّ



د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو
الخاصة بسلطنة عمان



هناك قاعدة إنسانية ترتبط بالتعليم والإنسان، مفادها:

إنَّ بناءَ مواطنٍ واعٍ يحمل في وجدانه قيم الانتماء وفي عقله أدوات التفكير النقدي هو الضمانة الحقيقية لاستمرارية الأمة وحماية أمنها في عصر مفتوح على فضاءات متعددة ومتداخلة.

فمما لا غرو فيه أنَّ العلاقة بين التعليم والمواطنة والأمن القومي تشكل روابط شاملة، نترسم بها ملامح مستقبل الأمم في العالم العربي، وتكتسب هذه العلاقة أهمية استثنائية في ظل التحديات المعاصرة التي تواجه الهوية والأمن والاستقرار.

لذلك فإنه يتحتم على التعليم أن يكون القلب النابض لمنظومة بناء الإنسان، ويخرج عن كونه مجرد ناقل للمعرفة، ليأخذ مكانته كعامل جوهري لحدوث عملية تشكيل الوعي الإنساني بأبعاده المختلفة، فهو بذلك يعكس الفلسفة التربوية التي تؤمن بأن الإنسان كائن قيمى قبل أن يكون كائناً معرفياً، وبالتالي فهو بحاجة لمنظومة تعليمية تحقق له توازناً بين بناء العقل وتهذيب الروح، وهو ليس بالمطلب الجديد، فقد كانت الفلسفات القديمة منذ عهد أفلاطون تعترف بأهمية وجود تربية تبني مواطنين صالحين ودولة فاضلة وتنادي بها وبتطبيقها.

إذاً ليس بالغريب أن يكون هذا المطلب الآن في عصرنا الحالي حتميةً وجدانيةً للأمم التي تسعى للحفاظ على كيانها وسيادتها أكثر من أي وقت مضى، وليس بالمستهجن أيضاً أن يكون هذا الخطاب اليوم موجه لكل طالب وطالبة حملهم طلب العلم والدراسة أو حتى العمل للاغتراب والابتعاد عن وطننا العربي، فهم أحرى الفئات بهكذا خطاب صحوّة وتوعية قبل أن يفوت أوان التوعية، لذلك فقد وجب وجود تربية قيمية تغرس قيم المواطنة والانتماء في نفوس هؤلاء النشء، أمام ما تتعرض له المجتمعات العربية من تحديات ثقافية وفكرية متعددة المصادر والأشكال، فالتعليم هو خط الدفاع الأول عن الهوية والأمن القومي، فالمواطن المتسلح بالمعرفة والوعي يكون أكثر قدرة على التمييز بين الغث والسمين في الأفكار والمعلومات التي تصله ويتعامل معها، ويصبح قادراً على فهم جذور هويته، فيتعزيز انتماءه لوطنه، تزيد حصانته ومناعته من محاولات الاستلاب الثقافي، بسبب ما يمتلكه من مهارات تفكير نقدي، إذ يتخذ هذا النمط من التفكير كدرع واقٍ أمام الأفكار المضلّة والدعايات المغرضة.

إن التعليم الذي يقوم بما يوكل إليه من هذه الأدوار الحيوية، ينتقل نقلة نوعية في مستوياته وغاياته، فيقوم بتعميق علاقته بالأمن المجتمعي والدولي، ويربأً بذلك عن دوره المباشر السطحي، ليغوص لأعماق جوهرية

تَعكس قدرته على بناء المنة الفكرية، التي تحمي المجتمع من الاختراق الثقافي والفكري الممهدين بشكل مباشر للاختراق الأمني والسياسي، فالعصر الحالي يشهد تحديات جديدة يراد بها إعادة تعريف مفاهيم المواطنة والهوية بشكل يسلخ الأفراد عن انتماءاتهم الوطنية، فالشباب في ظل تدفق المعلومات يصبحون أكثر عرضة لاستقبال أفكار متناقضة تشكل خطراً عليهم إن لم يمتلكوا أدوات التمحيص المناسبة، فهم قد علقوا بين المطرقة والسندان في بيئة فضائية رقمية خصبة للاستقطاب الفكري والتجنيد لخدمة أجندات لا تتوافق والمصالح الوطنية، وفي ظل تبعات العولمة الثقافية تظهر أسئلة جوهرية تطرح ماهية وحقيقة العلاقة الخصوصية بالكونية والتراث الأصيل بالمعاصرة الحديثة.

وفي هذا السياق، يفرض التعليم حضوره بأفكار وغايات يراد بها غرس القيم، وإملاك الطلبة مهارات التفكير النقدي، وإكسابهم انتماء وجودياً من شأنه تحقيق الأمن القومي العربي على الصعيد الشخصي والمجتمعي وحتى العالمي، فالمواطن الذي يمتلك بوصلة أخلاقية وفكرية واضحة هو الذي يستطيع أن يتعامل مع هذه التحديات دون أن يفقد هويته أو ينساق وراء أجندات مشبوهة.

لذلك فإن بناء منظومة تعليمية قادرة على تحقيق التوازن بين المواطنة والأمن، ينبغي أن تقوم على عدد من الركائز، منها:

التكامل بين المعرفة والقيم: إذ لا يمكن فصل المعرفة عن منظومة القيم، فالمعرفة دون أخلاق ما هي إلا أداة هدم، والقيم دون معرفة ما هي إلا شعارات جوفاء، لذلك وجب أن يكون التعليم مشبعاً بالقيم الإنسانية والدينية والوطنية التي هي وشائج في نسيج الثقافة العربية والإسلامية.

تعليم المبادئ الإسلامية والقيم الإنسانية: إذ يمكن للتعليم تحقيق غاياته ببناء المواطنة في نفوس النشء من خلال تعليمهم المبادئ الإسلامية والقيم الإنسانية عبر منهجية متكاملة تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتبدأ بغرس أسس العقيدة الصحيحة والتعريف بحقوق الله وحقوق العباد، ومن ثم تنمية الوازع الديني الذي يدفع الفرد للالتزام بالسلوك القويم حتى في غياب الرقابة الخارجية، فضلاً عن تعليمهم قيم التسامح والعدل والرحمة والإحسان للآخرين، وتنمية روح المسؤولية المجتمعية، وتعزيز هذا البناء من خلال القدوة الحسنة في الأسرة والمدرسة والمجتمع، وربط المبادئ النظرية بالتطبيق العملي في الحياة اليومية، لإنشاء مواطن يجمع بين الالتزام الديني والأخلاقي والمشاركة الفعالة في تنمية مجتمعه، متمسكاً بهويته وأصالته ومنفتح على العالم.

تنمية التفكير النقدي: فالتعليم الفعلي هو تعليم جوهره أن يعرف الشباب كيف يفكرون لا بماذا يفكرون، فهو ما سيشكل الضمانة الحقيقية لحمايتهم من الاستقطاب الفكري المندس، إذ من خلال اكتسابهم القدرة على تحليل المعلومات ونقدها، والتمييز بين الحقائق والآراء، والتحقق من مصداقية المصادر، وبناء استنتاجات منطقية قائمة على الأدلة، يكونون قد تحصنوا بدرع حصين من الثقة والإقدام في تعاملهم مع الانفتاحات المعاصرة.

تعزيز الهوية وتجديدها: فالتعليم واجب أن يرتبط بتقديم هوية وطنية وثقافية واضحة المعالم للنشء، مع إدراك أن الهوية ليست كياناً جامداً، وإنما بناء متجدد يمكنه استيعاب العناصر الإيجابية من الثقافات الأخرى دون ذوبان أو انسلاخ.

التربية على المواطنة: إذ يجب على التعليم أن يعكس فكرة عميقة ترتقي بالمواطنة من كونها مجرد انتماء جغرافي أو قانوني، لتصبح ممارسة وسلوكاً يومياً، ويتم ذلك من خلال تعليمهم المشاركة الإيجابية في قضايا المجتمع، الموازنة بين الحقوق والواجبات، وتقدير المصلحة العامة وأولويتها.

وعلى الرغم من أهمية دور التعليم فيما سبق، إلا أنه لا يمكنه القيام بذلك بمعزل عن مشاركة بقية مؤسسات التنشئة الاجتماعية، فمن أسرة لها دور حيوي كحاضنة أولى للقيم والانتماء، ومؤسسات دينية لها وزنها في ترسيخ الأخلاق وقيم التسامح والاعتدال، ووسائل إعلام تعمل على ترسيخ وتعزيز الخطاب الوطني المتوازن، وصولاً إلى مؤسسات مجتمع مدني تعنى بتدريب الشباب على المشاركة المجتمعية الفاعلة، كل هذه الجهات وغيرها تعمل مجتمعة على تضافر جهودها نحو المصلحة الأوسع والأشمل وهي بناء الإنسان.

لذلك لم يعد التعليم ترفاً وترفيهاً، وغايات هامة، تقاس بمعايير حسابة، ولم يعد خدمة تقدمها الدولة، وإنما أصبح مشروعاً للأمن القومي بالمعنى الإستراتيجي، فهو يرتبط ببناء جيل يحمل في وجدانه جوهر انتمائه، وفي عقله أدوات تفكيره، فيصبح هو ذاته الضمانة الحقيقية لحماية المجتمعات العربية من الاختراق والتفكك، وحماية شباب هذه المجتمعات - وخاصة الفتيات - من الاغراءات التي قد تستدرجهم إلى كهوف التبعية العمياء، والانسحاق وراء أجندات أجنبية تسعى للتسبب بأذى ليس للأفراد وحسب، بل تمس الأمن القومي والداخلي للبلاد، وهذا ليس بأضغاث أحلام وهواجس عابثة، فكم من نموذج عربي قد مر في هذه السنين لشباب ضاعوا وأضاعوا أمانة انتمائهم وإخلاصهم لوطنهم، فكانوا ضحية لشهوات مال ومتعة زائلة سلبت عقولهم ومنعتهم من رؤية ما خفي من ضياع، فكان حتفهم سقوط في بئر من الخيانة والعار والدمار، وما أوصلهم لذلك هو تردد فئات من هؤلاء النشء من طلب المشورة والنصيحة أمام معترك الحياة الصعب الحافل بالأوهام والزيغ، وما يخوضونه من هفوات قد تجذبهم وهم لا يدركون أين يسبرون، فيأخذهم طوفان النشوة دون أدنى تفكير، ويحول دواخل نفوسهم لصراعات داخلية لا تهدأ ولا تلين، وعوض اللجوء لطلب العون والمشورة والكشف عما يعتل صدرهم من قلق وهواجس، وما يعتريهم من أرق، وهو أمر مشروع و واجب محتتم ، إلا أنهم يختارون البعد والانغلاق والانغماس أكثر وأكثر في ضياعهم، فهيئات لهم من منقذ بعد فوات الأوان.

فالتَّحدِّي الحقيقِيّ اليوم يكمن بتجديد منظومة التَّعليم العربيَّة لتستجيب لمتطلَّبات العصر مع الحفاظ على الثوابت والقيم الأصيلة، وعلى الرِّغم من كونها معادلة صعبة للوهلة الأولى، إلَّا أنَّها ليست بالمستحيلة، ولكنها تستلزم وجود رؤية فلسفيَّة عميقة تشدُّ من أزر علاقة الأصالة بالمعاصرة، والهويَّة بالانفتاح المسؤول، والخصوصيَّة بالعالميَّة الكونيَّة، ممَّا يؤدي في نهاية المطاف لإعادة تشكيل وعي النشء الذين سيكونون أساس بناء مستقبل أمن عربي حقيقي قائم على تعليم قيمِي ووَطني إلى جانب ارتكازه على أسس التَّفكير النقدي والإبداعي، وهذه كلُّها تعمل متكاملة لتصبَّ في نتيجة ومحصلة واحدة ألا وهي بناء مجتمعات قادرة على الصمود والتَّقدم في عصر التَّحديات المتلاحقة، مجتمعات قادرة على التَّواصل مع الآخر الذي يخالف فكرها وعقيدتها وتوجهاتها، ورغم ذاك قادرة على أخذ التَّجارب الإيجابية منه وترك السِّلبيَّة والتَّطرُّف فيه، مجتمعات متصالح مع ذاتها، تعرف نقاط قوتها وتستثمرها، وتقف على نقاط ضعفها وتحاول حلها، تحاول وتجرب وتختبر ما تمرُّ به ، فإنَّ نجحت مساعيها فهنئاً لها وطاب إنجازها.

ختاماً، فإنَّ بناء العقل المستنير المتمسك بقيمه وأصوله الإسلاميَّة، هو خطَّ الدِّفاع الأوَّل للأمة، فالتَّعليم الذي يؤسِّس النشء على التَّربية الإسلاميَّة بمفاهيمها الشَّاملة، ويزرع جذور الانتماء ويغرس أدوات التَّفكير النقدي، هو مشروع أمن قوميِّ بامتياز، فعندما تتكامل المعرفة الدينيَّة الصحيحة مع منهجيَّة التَّفكير السَّليم، ينشأ جيل متوازن يستمدُّ قوته من عمق إيمانه وسعة أفقه، محصَّن بالقيم الإسلاميَّة السَّمتة التي تحميه من الانحراف الفكري والأخلاقي، وتعمل على بناء شخصيَّة المواطن الذي يحصن الوطن من الدَّاخل قبل أن تحصنه الأسوار من الخارج.